

## مقدمة التفسير للعلامة الزمخشري

اعلم أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة- طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصناع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافة قصيرة وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقى إلى أن عدّ ألف بواحد- ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معان يدق فيها مباحث للفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وفصهم، وعامتهم عمارة عن إدراك حقائقها بأحداقهم عناية في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم ثم إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهز الأبواب القوارح<sup>1</sup>» من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنهما أزيمة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات قد رجع زمانا ورجع إليه، وردّ ورده عليه فارسا في علم الإعراب، مقدّما في حملة الكتاب وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس درّاكا للمحة وإن لطف شأنها، متنبها على الرمزة وإن خفى مكانها، لا كرا جاسيا، ولا غليظا جافيا متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريب<sup>2</sup>» بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه. ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية<sup>3</sup>» العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلى في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب واستطبروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أملى عليهم

<sup>1</sup> قوله «بما يبهز الأبواب القوارح» في الصحاح: قرح الجافر، إذا انتهت أسنانه، وكل ذي حافر يقرح، وكل ذي خف يبزل. (ع)

<sup>2</sup> قوله «غير ريب» في الصحاح: ناقة ريب، أول ما ريبض وهي صعبة بعد. (ع)

<sup>3</sup> قوله «من أفاضل الفئة الناجية» هي التي سماها أهل السنة بالمعتزلة، فقول «إخواننا في الدين» يقتضى أنه من المعتزلة. ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول يقول المعتزلة، فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبغها على ظاهرها، وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم، عفى الله عنه. (ع)

(الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاة أحواله وركاكة رجاله وتناصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأملت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذنان، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالا يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإنابة بحرم الله فتوجهت لتقاء مكة، وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها- وقليل ما هم- عطشى الأكباد إلى العنور على ذلك المملّى، متطلعين إلى إيناسه، حرصا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حطت الرجل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية، من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس، ادام الله مجده، وهو النكتة والشامة في بنى الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم- أعطش الناس كبداً وألهبهم حشى وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه- في مدة غيبتني عن الحجاز مع تراحم ما هو فيه من المشادة- بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض فقلت قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيت به العلل ورأيتنى قد أخذت منى السنّ، وتقعقع الشنّ، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر، «<sup>4</sup>» ووفق الله وسدّد ففرغ منه في مقدار مدّة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه «<sup>5</sup>» وكان يقدرّ تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيّني، ونوراً لي على الصراط يسعى بين يدي وبيمينني ونعم المستول.

<sup>4</sup> . قوله «والفحص عن السرائر» لعله «الشرائد» أو «الشذائد» . (ع)

<sup>5</sup> . «قوله ففرغ منه في مقدار خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه: وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة» كانت مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه سنتين وثلاثة أشهر على الصواب وكأنه لمح بذكر الثلاثين إلى حديث سفيانة مرفوعاً «الخلافة بعدى ثلاثون سنة» أخرجه الترمذى وغيره. فكانه قال يقدر تمامه في مدة الخلفاء الراشدين فيسره الله في قدر مدة أولهم وأفضلهم. وكانت أيضاً أقصر كل من الثلاثة الذين بعده لأن خلافة عمر رضى الله عنه كانت عشرة أشهر، وعثمان رضى الله عنه اثني عشرة سنة، وعلى رضى الله عنه خمس سنين إلا أشهراً. وقتل على رضى الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بتسع وعشرين سنة ونصف، وأكمل النصف مدة الحسن بن على رضى الله عنه، والله أعلم؟؟ من تخريج الأحاديث للحافظ ابن حجر.